الثبات في حياة المؤمن

أ.د. عبد الله السيد عبد الرحمن

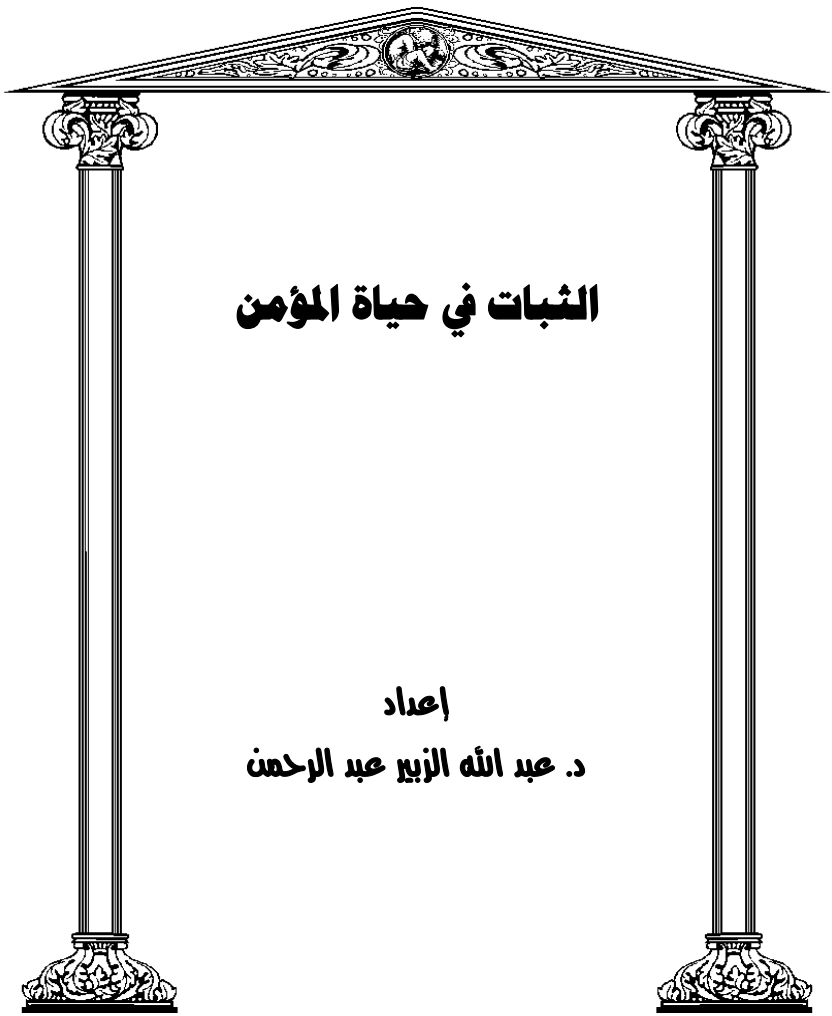

الثبات في حياة المؤمن

إعداد

د. عبد الله الزبير عبد الرحمن

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ . ٢٠١٣م

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

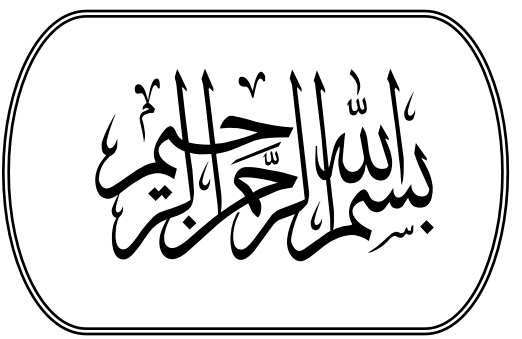
بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وحبيبه وصفيه وخليله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، اللهم فصلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فهذه صفحات وضيئة في معنى مهم من المعاني الإيمانية العالية ، ولازم من لوازمه ، ومقامة من مقاماته الواجبة ، كُتبت على تزلّف إلى الرب ، وتقرّب من رضاه ، وتطلع إلى جنانه ، وتعافٍ من سخطه وعدم رضاه . وقُصد بها نفع

الأمة وأبناء الإسلام في زمان كثر التخبّط ، وازداد التساقط على شفا الإباحية وحملات التغريب والتشويه ، وعلى أسـنّة الإقصاء من الانتماء الواجب ، ردة من بعـد إيـمان ، وسـلباً من بعد التديّن المستقرّ .

إنها رسالة وجيزة إلى كل داعية بخير في أمتَىْ الإجابة والدعوة، وكل آمر بالقسط من الناس ـ أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ـ ، وإلى الذين لا يزالون يمشون في الناس بالحق قائمين على الحق لا يضرّهم من خالفهم ـ عقيدة أو خلقاً أو سلوكاً أو دعوة أو جهاداً ـ مضمونها: أن ابقوا على ما أنتم عليه متزوّدين بالتقوى، متوكلين على الله، مستندين إلى الحق، مبتغين مرضات الله وجناته، والعاقبة للمتقين ، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، والحق لا شك يعلو ولا يعلى عليه .

هي رسالة أهديها إلى المرابطين في ثغـور المسـلمين ـ في الشرق وفي الغرب ، وفي الجنوب وفي الشـمال: في كشـمير،

وفي الفلبّين ، وفي فلسطين وغزة العزة، وفي الشّيشـان، وفي البلقان، وفي السّودان ـ أهـديها إلى الممسـكين عـلى الزّنـاد ترصّـداً لأعـداء الله، أهـديها إلى المجاهـدين في سـبيل الله يهلكون دون أمتهم، ويقتلون في سبيل دينهم، ويموتون من أجل الحفاظ على الهويّة والعرض والأرض تمكينـاً للـدين، وترسيخاً للعقيدة، وحراسة للشرـع، وإبقـاء لخيريـة الأمـة ووسطيتها في الأمم وفي العالمين. ورجـائي أن ينفـع الله بـه المسلمين ، وأن ينفعني من قبل ومن بعد وأهـلي وأولادي ، فنكون كما يحبّ الله وعلى ما يُرضيه..

اللهـم اجعـل عمـلي كلـه صـالحاً، واجعلـه لوجهـك خالصاً، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً .. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

الفقير إلى رحمة ربه

عبد الله الزبير عبد الرحمن

معنى الثبات وحقيقته:

الثبات في أصل اللغة يراد به : تسكين القلب، والإقامة على الأمر، والسير الذي يشدّ به الرّحْل، والاحتباس في المكان لا يفارقه [1].

وقد أراد العلماء في استخدامهم لفظة الثبات مجموع هذه المعاني الذي يجتمع على : " إقامة المؤمن على حال الإيمان واليقين في مواطن الشدّة والمحنة والبلاء بقلب ساكن وفؤادٍ ثابت " .. أو هو : " عدم الجزع عند وقوع المصيبة والفتنة والبلاء على طمأنينة وصبر ".

الثبات من لوازم الإيمان:

الثبات على الحق والمبدأ سمة من سمات المؤمنين، وصفة من صفات الموحّدين، بل هو لازم من لوازم الإيمان، وغاية لا يدركها إلا مؤمن جاهد العصيان،

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور ، ج٢ ص ١٩ ـ ٢٠ .

وروّض نفسه على الطاعة والإحسان فيها.

فإن الإيمان إذا استقر في القلب ، وسرى في النفس ، يصعد و ينزل مع النفس، ويغدو ويروح مع المؤمن حيثما راح المؤمن وغدا لا يفارقه ، وإذا تشبّعت به الجوارح سخّر به المؤمن كل شعب الحياة لمرضاة الله ، وعندئذ يُثمر الإيمان القوة والعزة، ويذخر باليقين والطمأنينة ، ويُزهر السكينة والثبات :

❁ الثبات على ما آمن به ..

❁ والثبات على الحق الذي عرفه ..

❁ والثبات على الدعوة إليه ..

❁ والثبات على الجهاد في سبيله ..

❁ والثبات في الشدائد كلها ..

❁ والثبات على البلاء والفتنة ..

وليس ذلك إلا للمؤمن . ولعلّ ذلك هو سرّ تعجّب النبي ﷺ من أمر المؤمن عندما قال : (عجباً لأمر المؤمن،

إنّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن، إنْ أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[1]. فالمؤمن بإذن الله يتقلّب على شقين: شقّ الشكر، وشقّ الصبر، وكل ذلك خير.

ولهذا يخسر دائماً الطغاة والجبابرة وأنصار الباطل من ذوي السلطان والجاه ممن لا يرقبون في المؤمن إلاًّ ولا ذمّة، يبطشون بأهل الإيمان ودعاة الحق ورسل الخير الهداة المهديين، فلا ينالون منهم إلاّ الثبات على ما يدعون إليه وعلى ما آمنوا به، كأنهم الجبال الشمّ الرواسي لا تقدر العواصف الهائجة ـ مهما اشتد ريحها ـ أن تقلعها بل ولا أن تحركها قيد أنملة.

أما أصحاب الدخن في إيمانهم، ومن أصاب إيمانهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه باب المؤمن أمره كله خير ، حديث رقم ٢٩٩٩ ، ج٤ ص ٢٩٦٥ ، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر إثبات الخير للمسلم الصابر عند الضراء والشاكر عند السراء ، برقم ٢٨٩٦، ج٧ ص ١٥٥ .

الوهن، وضعف في قلوبهم اليقين ؛ يتلجلجون لأدنى فتنة، ويترنحون بأقلّ شدة ، وينهزمون بأخفّ ابتلاء .. وما أكثر اضطراب غير المؤمن الموحّد عند الابتلاء ! لا يثبت ولا يصبر، وكم من هؤلاء من ينقلب على عقبيه عند أول فتنة كافراً محضاً من بعد الإسلام ، أو ملحداً صرفاً من بعد الإيمان، أو عاصياً فاجراً من بعد الاستقامة .. وكم منهم من يتخلى عن دينه بأول عَرَضٍ رغيب أو رهيب !!..

الثّبات من مقاصد القرآن:

ورب العزة جلّ وعلا نعى على هؤلاء أشد النعي ، يخبر عن حالهم وكيف أنهم لا يثبتون على مبدأ ولا على حال ، وكيف أنهم متأرجحون بين الإيمان والكفران ، تقلعهم أول فتنة من جذور الإيمان وترمي بهم في مكان سحيق مع من سفه نفسه ، فيقول تعالى في شأنهم﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا

وَٱلْأَخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾[1].

هذا صنف من المتساقطين على إصابات الفتن، وهناك صنف آخر كذلك يتساقط بالفتن، ويظنّ فيها ظنّ الجاهلية الأخطأ وهم الذين أخبر الله عنهم في قوله جلّ وعلا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

وهذا هو حال غير المؤمن الموحّد في الشدة والبلاء دائماً "الجزع، والهلع، والانهيار، والانهزام، والارتباك، والارتياب، والاضطراب، والقنوط، واليأس، والله تعالى يقرر هذه الحقيقة وهذه الصفة في غير الموحّدين فيقول عزّ وجلّ عن حالهم في الشدّة والبلاء: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ ﴾[3].. وقال عن حالهم أيضاً

(١) سورة الحج، ١١.
(٢) سورة العنكبوت، من الآية ١٠.
(٣) سور ةالإسراء، ٨٣.

﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]..

وفي مقارنة بين المؤمن الموحّد العابد ، وبين غير الموحّد غير المؤمن المتمرد على عبادة الله تعالى يبيّن الله سبحانه أن الثبات لا يقدر عليه غير الموحّد فيقول جلّ وعلا﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[2].

ولهذا قصد ربنا تبارك وتعالى إلى تعمير قلوب المؤمنين بالثبات ، وإلى تعليمهم على أن يثبتوا على الإيمان مهما تبدّل الحال ، ووقع البلاء ، وقامت الفتنة، وازدادت الشدة بالمؤمنين:

فقصّ عليهم قصص الأنبياء ، وأحوالهم ، وما كان لهم وما وقع فيهم وعليهم ويثبت الذين آمنوا على الحق الذي أنعم الله به عليهم ، حتى رسول الله ﷺ قصد ربه عز وجل إلى تثبيت فؤاده وتسكين قلبه على الدعوة إليه فقال جلّ

(١) سورة فصلت ، ٤٩ .

(٢) سورة المعارج ١٩ ـ ٢٢ .

وعلا: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1]..

وأُنزل القرآن تثبتاً لقلب النبي ﷺ ومن خلاله تثبيتاً للمؤمنين من أمته، والخطاب للنبي ﷺ خطابٌ لأمته وقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[2].

وإنْ كان هذا في حق تثبيت النبي ﷺ على الحق الذي جاء به ربه إليه وأكرمه عليه ؛ فإنّ القرآن كذلك نزّله رب العزة تثبيتاً للمؤمنين به على الحق وعلى المبدأ وعلى الدعوة إليه وعلى الجهاد في سبيله فقال جلّ شأنه :﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة هود ، ١٢٠ .

(٢) سورة الفرقان ، ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) سورة النحل ، ١٠٢ .

فكان من مقاصد إنزال القرآن : تثبيت المؤمن ، مع كونه هدى للمسلمين وبشرى لهم .

والله تعالى يُعِين المؤمنين على الثبات بشتى الوسائل ، بل ولو مباشرة من عنده جلّ وعلا ، وها هو سبحانه وتعالى يمنّ على عباده المؤمنين بنعمة الثبات في الدنيا والآخرة ويخبرنا في معرض المنّ علينا فيقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

مقابلة بين ما هو نعمة وبين ما هو نقمة .. بين حال المؤمنين في الثبات ، وحال الكافرين في الضلال والشتات، ولله الحمد والمِنّة في الأولى والآخرة .

* * *

(١) سورة إبراهيم ، ٢٧ .

الثّبات في دعوة النبي ﷺ :

فقد كان الرسول ﷺ يُلقي في قلوب أصحابه ﷺ بمعاني الثبات، يربيهم على أن يثبتوا، ولما أوشك أن ينفد صبر أصحابه ﷺ من شدّة البلاء وقوته، ومن شدّة العذاب عليهم ، ومن تتابع الفتنة، وصار بعضهم يرى بُعد النجاة، وتأخّر النصر لهم على الكفّار الذين يصدّونهم عن سبيل الله! فقالوا لنبيهم ﷺ: " ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا! " فقال لهم رسول الله ﷺ : (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه ، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصدّه ذلك عن دينه ، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) [1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسيرباب علامات النبوة في الإسلام ، ج٤ ص ٢٠١ وكتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ج ٩ ص ٢٠ .

ميـادين الثبـات ومواطنـه

أولاً: الثبات على المبدأ :

١ـ سيّد المرسلين وإمام المتقـين وقائـد أهـل الثبـات في العالمين محمد بن عبد الله ﷺ حين عجزت قريشٌ من إثنائـه عن دعوته بتخويفه وتخويف أصحابه وإيذائهم والسعي إلى فتنتهم وفتنته عليه الصلاة والسلام فعجزوا عن ردهم عـن دينهم ، فاشتد الأمر بينه ﷺ وبين قريش ، فلجـأوا إلى عمّـه أبي طالب وهو الذي حماه ونصره دون قريش كلهم ، فقالوا له : " يا أبا طالب ! إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنّا قـد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنّـا والله لا نصـبر على هذا مِنْ شتم آبائنا ، وتسـفيه أحلامنـا، وعيـب آلهتنـا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلـك أحـد الفريقين . ثمّ انصرفوا ، فعظم على أبي طالـب فـراق قومـه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسـول الله ﷺ لهـم ولا

خذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : " يا ابن أخي! إنّ قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبقّ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق " . فظنّ النبي ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بداء، وظهر له رأي ، أنه خاذله ومُسْلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال له: (يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ؛ ما تركته) .. عندئذ علم أبو طالب من هو محمد بن أخيه ، وأن دعوته ليست للدنيا، وإلاّ لقبل الملك والجاه والرياسة والمال. فقال له عندئذ : " اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً " [1].

فالثبات من سنن المرسلين ، أقاموا عليه دعوتهم وسيرتهم مع أقوامهم ، وفي حياتهم الدعوية المحفوفة بالفتن

(١) سيرة ابن هشام ، ج١ ص ٢٤٠ انظر كتاب دلائل النبوة للبيهقي المقدمة ص ٦٦.

والابـتلاءات والمعانـاة والشـدّة ، وعلّمـوه أصـحابهم وحواريهم، فورث هؤلاء من الأنبياء الثبات على الحق وعلى المبدأ، ولقد عُذّب أصحاب رسول الله ﷺ في قـريش عـذاباً يعذرون به لو تركوا دينهم ولكنهم ثبتوا عـلى الحـق الـذي عرفوه وآمنوا به ، ومنهم :

١ ـ بلال بن رباح رضي الله عنه:

كان مولى لبني جمح ، فلّما أسلم وصدق إسـلامه صـار أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكـة ثـم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول لـه : " لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد وتعبـد الـلات والعُزَّى". فيقول وهو في ذلك البلاء: "أحدٌ أحدٌ". وكـان ورقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك وهو يقول : " أحدٌ أحدٌ " فيقول ورقة : " أحدٌ أحدٌ والله يا بلال ، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك ببلال فيقول : " أحلف بالله

لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حناناً"[1].

فلم يزل بلال كذلك ثابتاً على البلاء والفتنة، قابضاً على دينه، مقيماً على مبدئه، حتى أعتقه أبو بكر رضي الله تعالى عنه[2].

٢ـ المرأة المسلمة :

والمرأة المسلمة في أول الإسلام لم يستطع العذاب أن ينال ـ مهما اشتدّ ـ من مثقال ذرة من إيمانها ، ولم تؤثر في ثباتها على الحق والإيمان تقلبات الدهر والأحوال ـ مهما كانت مريرة فظيعة ، فلا يقهرها البلاء، ولا تفتّ في عضدها الفتنة، ولا تلين بمقامع التعذيب ، أو تلتفت لمفاتن الدنيا وتراغيب أولي الثراء وإغراءات أصحاب الدثور ممن أشرك وحارب الله، بل ثبتت تركل كل ذلك ، ماضية في

(١) أي إذا مات على هذا الحال من التوحيد لأجعلن قبره متبركاً به انظر الأثر في كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ج ١ ص ١١٨ وكتاب حلية الأولياء بلال بن رباح ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ج١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

سبيل الحق ونصرته والدعوة إليه ، مؤمنة موحّدة لله الواحد الأحد، تردد بلسان المقال والحال ، يوافقهما الرجع والصدى من أعماق نفسها : [عليها نحيا، وعليها نموت، وفي سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله] .. تنادي إحداهن:

((كلّما قلبني الدهر يجدني من نسائه)) ..

وتقرض الأخرى في وجه كل فتّان ضلّيل :

وتجلّدي للشامتين أريهمو

أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

فهذه سميّة بنت خياط أم عمّار بن ياسر رضي الله عنهم نالها العذاب الأليم في جنب الله ـ هي وزوجها وابنها عمّار ـ فما من جبّار في قريش إلاّ لطّخ يديه بتعذيبها وأسهم في تشديد العذاب عليها وعلى زوجها وولدها . إذا حميت الظهيرة أخرجوهم يعذّبونهم برمضاء مكة ، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ يبشّرهم بالجنة يقول لهم : (صبراً آل ياسر

موعدكم الجنة)[1].

ومع كل ذلك لم تجزع ولم تهلع ولم تخف أو تتردد أو تبدي تراجعاً بل ثبتت واستمسكت بعروتها الوثقى، لم تُجْدِ مقامع التعذيب والترهيب بعد مطامع الترغيب في إرجاعها عن دينها، ولم تُفلح مساعي الكبراء في ارتدادها، بل ثبتت مؤمنة موحّدة صابرة قوية ، حتى أنهى عدو الله ورسوله الملعون أبو جهل لعنة الله عليه ـ أنهى عذابها بحربته وهي تأبى إلاّ الإسلام ، فكانت أول شهيد في الإسلام من الرجال والنساء جميعاً كما يقول مجاهد.

وهذه زنيرة الرومية رضي الله عنها ، من السابقات إلى الإسلام، وكانت ممن يعذب في الله أشدّ العذاب، وكان أبو جهل يعذبها، فأعتقها أبو بكر الصديق رضي الله عنه ضمن السبعة الذين أنقذهم من التعذيب، فذهب بصرها من شدة

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٩ ، صفة الصفوة ، ج٢ ص ٥٩ ـ ٦٠ ، السيرة النبوية للندوي ، ص١٠٧ .

التعذيب حين أعتقها أبو بكر ، فاستغل المشركون في مكة هذا الحدث ـ كعادة أهل الباطل في كل حين، وكما يفعل اليهود والنصارى وأعداء الحق أجمعون اليوم ضد الدعاة والمستقيمين ـ يشيعون أن زنيرة لما كفرت باللات والعزّى أعمتها اللات والعزّى ، فقالت المؤمنة الفاضلة رضي الله تعالى عنها : كذبوا وبيت الله ! ما يغني اللاّت والعُزَّى ولا ينفعان .. فردّ الله إليها بصرها كرامة لها وفضلاً منه ورحمة ونعمة [1].

٣ـ أصحاب الأخدود :

ومن الثبات على المبدأ في الأمم السابقة والأقوام السالفة، لا يقدّمون على أمر الله أمراً ، ولا على الخوف من الله خوفاً ، ولا على ما عند الله رغباً ولا رهباً ، بل يثبتون

(١) الإصابة : ج٤ ص ٣١١-٣١٢، الاستيعاب لابن عبد البر: ج٤ ص ٣٢٢-٣٢٣، سيرة ابن هشام ، ج١ ص ٢٧٨ ، حياة الصحابة: ج٣ ص ٤٧٥ .

على الحق الذي عرفوه والمبدأ الذي التزموه حقاً وصدقاً ، وإن نالهم العذاب ، ووقع بهم البلاء ، واشتدّت عليهم الفتنة في الدين ، ولو سيقوا إلى النار المضرمة زمراً يشتوون عليها في سبيل الله .

من هؤلاء أصحاب الأخدود رحمهم الله .

فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: (كان فيما كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سني وحضر أجلي فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني

الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزون، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني وأنت ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ، كان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً؛ إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحواً ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا! قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام،

فبعث إليه فقال: أي بني بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء، قال ما أشفي أحداً؛ إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا! قال: لا، قال: أو لك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتي بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدُهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يلتمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قرقور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه في البحر، فلججوا به البحر

فقال الغلام: اللهم أكفنيهم بما شئت فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر! فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست

أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه ـ وفي رواية: امضي ـ فإنك على الحق، فاقتحمت في النار[1].

٤ - الإمام أحمد في محنة خلق القرآن:

وهذا هو الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة رحمه الله تعالى يجسّد أنموذجاً في الثبات على الحق، ويعطي القدوة من نفسه لأهل الإيمان وقادة الدعوة فيهم ليكونوا من أهل الثبات، رحمة الله تعالى عليه.

فإنه لما استحوذ على الخليفة المأمون جماعةٌ من المعتزلة فزينوا له القول بخلق القرآن ونَفْي الصفات عن الله عز وجل؛ دعا النّاس إلى القول بخلق القرآن، وتهدّد الممتنعين منهم بالضرب والإيذاء وقطع الأرزاق، فأجاب أكثرهم مكرهين خائفين، إلا أربعة: أحمد بن حنبل، والحسن بن

(١) أخرجه أحمد ، ج٦ ص ١٦ ، ومسلم في آخر الصحيح برقم ٣٠٠٥ ، والنسائي في السنن الكبرى برقم ١١٦٦١ . وراجع تفسير ابن كثير ، ج٤ ص ٤٩٤ ـ ٤٩٦ ، تفسير الطبري ، ج٣٠ ص ١٣٤ .

حماد سجادة، وعبيد الله بن عمر القواريري، ومحمد بن نوح، رحمهم الله تعالى، فبدأ والي بغداد في تعذيبهم، فاعترف سجادة بخلق القرآن، فأُطلق سراحه، ثم لم يلبث حتى قال القواريري بخلق القرآن بعد يوم واحد، فأُطلق سراحه، فثبت الإمام أحمد والشاب الفقيه محمد بن نوح رحمهما الله تعالى ، واستمرَّا في الامتناع عن القول بخلق القرآن، فشُدَّا في الحديد، وحُمِلا مقيدين متعادلين في محمل على بعيرٍ واحد، فمات محمد بن نوح رحمه الله في الطريق بعانات، فأُدخل الإمام أحمد إلى بغداد وهو مقيد وحبس في دار عمارة، ثم حُوِّل سجن العامة ومكث في السجن نحواً من ثلاثين شهراً.

بعد أربع ليالٍ وجّه إليه المعتصم ـ خليفة المأمون ـ الكبير أبا إسحاق فقال له: « يا أحمد! إنها والله نفسك إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد

ضرب، وأن يقتلك في موضع لا تُرى فيه شمسٌ ولا قمرٌ». فصار أحمد يقول: ما شاء الله! ما شاء الله!. فجيء به في جوف الليل إلى دار المعتصم يمارسون عليه أصناف التعذيب والتخويف والترهيب، يدخلونه غرفة بعد غرفة وليس في شيء منها سراج ولا ضوء، ثم أُدخل على المعتصم وهو يحمل أقياده وإلى جنبه ابن أبي دؤاد وقد جمع خلقاً كثيراً من أنصاره، فأدناه المعتصم ، وصار يناظرهم ،ويقول لهم: «أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ». المعتصم يقول له: « ويحك أجبني !ما كنت تعرف صالحاً الرشيدي؟ فقال أحمد: قد سمعت باسمه. قال: كان مؤدبي، وكان في موضعك هذا جالساً، فسألته عن القرآن فخالفني، فأمرت به فوطيء وسحب. يا أحمد أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حت أطلق عنك بيدي». وأحمد يقول: «أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ». فغضب المعتصم

وقال: خذوه واسحبوه واخلعوه، فسُحِب وخلع رحمه الله. ثم قال: العقابين والسياط. فجيء بالعقابين والسياط، فلما نظر إليها المعتصم قال: ائتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا وليضربه كل واحد سوطين لا غير ـ ليُفرغ فيهما كل قوته ـ ولالمعتصم يقول لكل ضارب : شُدّ قطع الله يدك. فلما ضربه عشرة رجال من أقوى رجال المعتصم قام إليه المعتصم يقول له: يا أحمد! علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق. وجعل سيَّافُه عجيف ينخس الإمام بقائمة سيفه ويقول له: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟. وبعضهم يقول للمعتصم: با أمير المؤمنين دمه في عنقي، أقتله. وأحمد يقول ثابتاً مرابطاً على المحجة البيضاء: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به. فنادى المعتصم في الجلادين: تقدّم وأوجع قطع الله يديك. والناس يقولون: يا أحمد إمامك على رأسك قائم، وبعضهم يقول:من صنع من

أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ والمعتصم يصيح فيه: ويحك أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي؟ والإمام يقول: يا أمير المؤمنين! أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فأرجعْ!! فصاروا يضربونه حتى أغمي عليه وأوشك أن تخرج نفسه من شدة ما ناله من العذاب وهو ثابت على قوله: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ. فاستمر التعذيب ثمانية وعشرين شهراً وهو يضرب ويعذب.

ولعل الذي أعانه على هذا الثبات الفريد رحمه الله تعالى جملة أمور:

ـ منها: إيمانه ويقينه بالحق الذي هو عليه، والباطل الذي عليه المأمون والمعتصم وجماعتهما من المعتزلة ومن والاهم. فها هو الإمام رحمه الله قيل له وهو في ذروة المحنة: « يا أبا عبد الله! ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟

فقال: كلا! إنّ ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحقّ»[1].

ـ ومنها: الشعور بالمسؤولية الدينية لو وافقهم أو نزل إلى مرادهم الباطل.

قال المروذي لأحمد رحمهما الله وهو في محنته :« يا أستاذ! قال الله تعالى ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾» فقال أحمد: « يا مروذي! اخرج انظر أيّ شيء ترى؟. قال: فخرجت إلى رحبة الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصى ـ عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروذي: أيّ شيء تعملون؟ قالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه. قال المروذي: مكانكم. فدخل إلى الإمام أحمد فقال له: رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه. فقال الإمام رحمه الله: يا مروذيّ! أضلّ

(١) مناقب الإمام احمد لابن الجوزي، ص ٣١١.

هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضلّ هؤلاء»[1].

ـ ومنها: مطالبات الصالحين من بسطاء المؤمنين رحمهم الله تعالى عليهم ونصائحهم له بالثباتس:

ـ فهذا أعرابي من عُبَّادهم يقال له جابر بن عامر رحمه الله وهو في طريقه إلى بغداد يقول لأحمد: « يا هذا! إنك وافد الناس فلا تكن شؤماً عليهم، وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا ، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إنْ لم تقتل تمت، وإنْ عشت عشت حميداً» قال أحمد: فقوي قلبي.

ـ وهذا أبو جعفر الأنباري رحمه الله يسمع بمجيء أحمد فيجتاز الفرات ليلقي في أذني الإمام أحمد أعواد التشبيت، ويضرب على قلبه أوتاد التمسّك بالحق، ويجهر

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص ٣٢٩- ٣٣٠.

بعبارات المؤازرة والتأييد يحثه على الثبات على المبدأ والحق ويطالبه بعدم النكوص فيه والتزحزح عنه يقول له: «يا هذا ! أنت اليوم رأيٌ والناس يقتدون بك، فوالله إنْ أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلقٌ من خلق الله، وإنْ لم تجب؛ ليمتنعن خلقٌ من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل أنْ لم يقتلك فإنك تموت، ولا بدّ من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء». فجعل الإمام يبكي وهو يقول: ماشاء الله ما شاء الله! ثم قال له: يا أبا جعفر! أعدْ عليّ ما قلت! فأعدت عليه، فجعل أحمد يبكي ويقول: ماشاء الله ماشاء الله[1].

ـ وهذا أبو الهيثم الحداد رحمه الله ـ وكان الإمام أحمد يستغفر له كثيراً وقد سمعه ابنه عبد الله بن أحمد بن حنبل وهو يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج٢ص ٢٧.

عن أبي الهيثم. فقال لأبيه: يا أبه من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه؟ قلت: لا. قال: أبو الهيثم الحداد؛ اليوم الذي أُخرجتُ فيه للسياط؛ ومُدّت يدي للعقابين، ؟إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول لي: تعرفني؟ قلت:لا. قال: أنا أبو الهيثم العيّار، اللصّ الطرار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربت ثمانية عشر ألف سوط بالتنفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين. قال أحمد: فضُربتُ ثمانية عشر سوطاً بدل ما ضُرب ثمانية عشر ألفاً[1].

ـ وهذا آخر يبعث إليه ببيتين يصبره بهما يقول له فيهما:

صبراً أبا حنبل صبر مبرِّح

فإذا عجزتَ عن الخطوب فمن لها

إن الذي عقد الذي انعقدت له

عقد المكاره فيك يملك حلها

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص ٣٣٣-٣٣٤.

صبراً فإنّ الصبر يعقب راحة

ولعلــها أن تنجـلي ولعلـــــــها

فأجابه أحمد رحمه الله:

صبرتني ووعظتني وأنا لهــا

وستنجلي بل لا أقـــول لعلــها

ويحلها من كان صاحب عقدها

كرماً به إذ كان يملك حلـــــها

ـ ومما أعان الإمام أحمد رحمه الله على الثبات أيضـاً، لجوؤه إلى ربه بالدعاء والتضرع.. فإنه لمّـا ضُرب بضـعة عشر سوطاً انقطعت تكة سراويله، فنـزل السرـاويل إلى عانته، فرمى أحمد طرفه نحو السماء وحرك شفتيه فما كان أسرع من أن ارتقـى السرـاويل ولم ينـزل ـ كـما يحكـي ميمون بن الأصبغ ووأحمد بـن الفـرج وعـلي بـن محمـد القرشي رحمهم الله تعالى ـ فلما سلم مـن المحنـة سـألوه:

رأيناك يوم ضربوك قد انحل سراويلك فرفعت طرفك نحو السماء تحرك شفتيك فأيّ شيء قلت؟. قال: قلت: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي ستراً.. إلهي وسيدي وقفتني هذا الموقف فتهتكني على رؤوس الخلائق!! ..يا من لا يعلم العرش منه أين هو إلا هو، إنْ كنتُ على الحقّ فلا تبدِ عورتي[1].

رحمه الله أرحم الراحمين..

ولما أخذته السياط أخذ يقول: بك استغثت يا جبار السماء ويا جبار الأرض، فثبت[2]. فسبحان من ابتلاه ثم أيده وبصّره وقوّاه ونصره.

ثانياً : الثبات عند الأذى في الدعوة :

فالداعية ليس بمجرد أن يكون داعية تُفرش له الأرض

(١) راجع: مناقب الإمام أحمد ص ٣٣١ – ٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٢.

حريراً، ويستقبله الناس بالورود ، ويستجيب له كل مدعو. بل إنه يعاني في دعوته وفي تبليغ أمر الله وتعليم دين الله والدعوة إلى التزام شرع الله .

وكثير ممن انطلق يدعو إلى الله ويبلّغ رسالة الإسلام انقطع، منهم من انقطع في أول الطريق ، ومنهم من انقطع في وسطه ، ومنهم من انقطع بعد ذلك ، إما بإغراء أو ترغيب بعرض من الدنيا ، وهو قليل ، وإما بالأذى يناله من الناس والفتنة تقع عليه بدعوته إلى الله . وذلك كله سنّة من سنن الله في الدعوة والدعاة ، وهو القائل جلّ وعلا :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

والذين صدقوا هم الذين ثبتوا على الدعوة فوق آلام الأذى وإشكالات الفتن . وكَذَب من انقطع عن الدعوة بأي قاطع رغيب أو رهيب ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم

(١) سورة العنكبوت ، ١ ـ ٣ .

وأخبر عنهم بقوله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وأول الصادقين في دعوتهم هو معلّم الثبات سيد الهدى أول المسلمين رسول الله ﷺ، ثبت على الأذى في الدعوة إلى ربه جل وعلا، وألقى بأذى الناس وفتنتهم وراء ظهره ينطلق مبيّناً منذراً مبشراً عليه الصلاة والسلام.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، وأُخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ﷺ ما يأكله ذو كبد إلاّ ما يواري إبط بلال)[2].

ومن مشهور ما أوذي فيه رسول الله ﷺ ما كان يلقاه

(١) سورة العنكبوت ، ١٠.

(٢) أخرجه في المسند أحمد بن حنبل مسند أنس بن مالك رضي الله عنه ج ٢١ ص ٤٤٣ والترمذي ج ٤ ص ٦٤٥ ، وابن ماجة ج ١ ص ٥٤ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح .

من الناس من الهوان والتسفيه لدعوته ، والإيذاء سباً وسخريةً واستهزاءً وهو ماضٍ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن .

فعن منبت الأزدي ﷺ قال : رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول : (أيها الناس ! قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا) فمنهم من تفل في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه ، حتى انتصف النهار ، فأقبلتْ زينب [ابنته] ـ وهي تبكي ـ بعسّ من ماء ، فغسل وجهه ويديه ، وقال : (يا بنية ! لا تخشـي على أبيك عَيلة ولا ذلّة)[1].

والداعية وإنّ شدّ عليه الناس، وقابلوه بالأذى، وسعوا إلى تثبيطه عن دعوته، وردّه عن بلاغه، وإيقاف مساعيه في الإرشاد والتعليم والتبليغ والتوجيه والتصحيح ؛ لا

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من اسمه منيب ، منيب الأزدي ج ٢٠ ص ٣٤٢ ، وقال الهيثمي : وفيه منبت بن مدرك ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات ، انظر : مجمع الزوائد ج٦ ص ٢١ .

يقابلهم بالمثل ، ولا ينتقم منهم، وإنْ وجد لذلك فرصته ، وإنْ قدر عليهم ، وإنْ مكّنه الله عز وجل من رقابهم وأموالهم ، وإنما يبقى كذلك داعية حريصاً عليهم رؤوفاً بهم، همّه الأعلى أن يهتدوا هدى ، وأن يستقيموا على الأمر، ويسلكوا الصراط، يُظهر عطفه عليهم، ويحُسن إليهم، ويدعو لهم .

فذاك صاحب يس بعد ما آذاه قومه فأكرمه الله يتمنى لو يعلم قومه ما انتهى إليه من النعيم المقيم والرزق الكريم، والثواب العظيم فيقول في تمنّ ورجاء يدلاّن على حرص على قومه ورأفة بحالهم لما قيل له: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾[1].

وهذا خير المرسلين حين مكّنه الله من رقاب قريش وقد آذوه أشدّ الأذى ، وطاردوه حتى أخرجوه من دياره وأمواله هو وأصحابه رضي الله عنهم ، لمَّا مكّنه الله منهم

(١) سورة يس ، ٢٦ ـ ٢٧ .

يوم فتح مكة ، وقد ظنّوا أنه باطش بهم ، منتقم منهم؛ أظهر لهم الودّ والحرص عليهم وعلى حياتهم ، والرأفة بهم وبأولادهم ، يسألهم : (يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) [1].

وهاهو سيّد المرسلين ﷺ لما آذاه رؤوس أهل الطائف وقد سلّطوا عليه سفهاءهم يهزءون به ويسخرون منه ويرمونه بالحجارة ، فلما خرج إلى قرن الثعالب وقد دميت رجلاه الشريفتان ﷺ صار يدعو ويشكو إلى ربه جلّ وعلا ويلحّ في دعائه وشكواه : (اللهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إنْ لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي) [2].

(١) سيرة ابن هشام ، ج٤ ص ٤١ انظر السنن الكبرى للبيهقي باب فتح مكة حرسها الله تعالى ج٩ ص ١٩٩.

(١) المعجم الكبير للطبراني مسند عبد الله بن جعفر ج ١٣ ص ٧٣

عندئذ مكّنه الله منهم ، وأرسل إليه جبريل عليه السلام في صحبة ملك الجبال يقول له : " إن الله سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم " فيعرض عليه ملك الجبال الانتقام من أهل الطائف يقول له : (يا محمد ! قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت، إنْ شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [أبا قبيس والأحمر]). فقال نبي الله الرؤوف الرحيم : (بل أرجو أن يخرج الله عزّ وجلّ من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[1].

وصدق الله العظيم الذي قال في نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام يؤكّد أصالة هذا الموقف النبيل من أهل مكة : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2].

* * *

(١) سيرة ابن كثير ، ج٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٣ انظر صحيح البخاري باب إذا قال أحدكم آمين ج ٤ ص ١١٥ .

(٢) سورة التوبة ، ١٢٨ .

ثالثاً : الثبات عند الابتلاء :

الابتلاء سنّة من سنن الحياة الدنيا ، لا يفارق الإنسان مهما صحّ اعتقاده، أو علا كعبه في التعبّد والالتزام ، أو ظهرت استقامته على الجادة ، مؤمناً حقاً ، ومسلماً يدعو بحاله ومقاله وفعاله ، كل ذلك لا يعفيه من الابتلاء الذي يلازمه منذ ولادته لا يفارقه حتى مماته.

فالله تعالى إنما خلق الحياة للابتلاء ، كما أنه عزّ وجلّ خلق الموت كذلك للابتلاء ، وقد قال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (١).

فإذا كان حتى الحياة والموت ابتلاء ؛ فكيف بتفاصيل الحياة وأسباب الممات ؟ كل ذلك يبتلي الله المؤمن لينظر أيصبر أم يضجر ! أيثبت على ما آمن به ؛ أم يجزع ويقنط!. وحق المؤمن أن يثبت على البلاء مهما شقّ عليه تحمله وتأخر تجاوزه ، والله تعالى يعينه على الخير ما ثبت وصبر .

(١) سورة الملك ، ٢ .

والثبات عند الابتلاء يكون بحسب الابتلاء ، وأهم ما يكون فيه الابتلاء كما ورد في القرآن هو :

١ـ الابتلاء بالخير والنعيم ، من المال والعقار والأولاد وغير ذلك .

٢ـ الابتلاء بالشرّ ، كالنقص في المال والولد والثمار وفقد الأصحاب ، وغير ذلك .

ـ قال تعالى في عموم الابتلاء ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] ..

ـ وقال في الابتلاء بالشرّ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[2] ..

ـ وقال أيضاً في الابتلاء بالشرّ ـ ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ

(١) سورة الأنبياء ، ٣٥ .

(٢) سورة البقرة ، ١٥٥ ، ١٥٦ .

أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾[1]..

ـ وقال في الابتلاء بالخير ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

أولاً : الثبات عند الابتلاء بالخير :

فالثبات عند الابتلاء بالخير غير شائع ، ولا ينبّه إليه كاتب ولا واعظ ولا داعية ، نادراً ما تجد داعية ينبّه إلى الثبات عند الابتلاء بالخير .

فكم ممن أنعم الله عليهم من بعد الفقر والعوز والحاجة والشدّة ، فلا يثبت على ما كان عليه من الاستقامة والالتزام، بل تجده قد تخلى عن دينه ، أو تديّنه، فصار قليل الشكر من بعد توافر أسباب الشكر ، قليل الذكر من بعد تكاثر المعينات على الذكر، كثير الإثم، ساع في الذنب والمعصية، وقد كان من قبل بالاستقامة معروفاً، وفي

(١) سورة آل عمران ، ١٨٦ .

(٢) سورة الفجر ، ١٥ ـ ١٦ .

الطاعات مشهوداً، وبالخير مشهوراً، ولكنه انقلب على عقبيه يرتمي في أحضان الدنيا يعبّ منها ولو كان حراماً بيّناً.

فهذا قارون ـ لعنه الله ـ كان واحداً من أتباع موسى، معروفاً بالطاعة والرشاد والاستقامة والسداد، غير أنه لما فتح الله عليه بنعمائه، وجرى الخير بين يديه بفضل الله المنعم نسي المنعم وتعلّق بالنعمة وقد انقلب على عقبيه كافراً محضاً من بعد الإسلام، وجاحداً منكراً من بعد الإيمان، بخيلاً مناعاً للخير يعتدي على حرمات الله شريراً أثيماً، فتغيّر حاله شراً بالخير الذي أُنعم به، فاسداً بالنعيم الذي خصّ به بدل أن يصلح به. وها هو خبره في القرآن صريحاً ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن

ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1].

وهذا ثعلبة بن حاطب الأنصاري يأتى مجلساً فيشهدهم فيقول:" لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت منه القرابة" ، فابتلاه الله فآتاه من فضله ، فأخلف الله ما وعده ، وأغضب الله بما أخلف ما وعده ، فقص الله شأنه في القرآن بقوله عزّ وجلّ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾[2].

وأخرج الطبري [3]بسنده إلى أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة

(١) سورة القصص ، ٧٦ ـ ٧٨ .

(٢) سورة التوبة ، ٧٥ ـ ٧٨ .

(٣) تفسير الطبري ، الآية ٧٦ من التوبة ، ج ١٠ ص ١٨٨ ـ ١٩٠ ، وانظر: أسباب النزول للواحدي النيسابوري ، ص ١٤٥ـ ١٤٦ . وقد تكلّم غير واحد في هذه القصة ، وذهب بعضهم إلى تضعيفها ، ومن أقوى ما ردّوها به أن النبي ﷺ أبى أن يقبل صدقته وقد جاء عارضاً الصدقة وأن

ابن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ : "ادع الله أن يرزقني مالاً . فقال رسول الله ﷺ : (ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه) قال ثم قال مرة أخرى فقال: (أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت) قال: "والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه". فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً). قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أدويتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما. ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة،

هذا الفعل من النبي ﷺ بعيد . ولكن ليس هذا بقادح في الخبر ولا راد له لأن الله تعالى أمر نبيّه ﷺ أن لا يقبل صدقة ممن كان كذلك فقال له : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبّل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ [التوبة، ٥٣]. فلعل عدم قبوله صدقة ثعلبة من هذا الباب ، والله أعلم. هذا وإن صحّ الخبر أو لم يصحّ فالاستشهاد به صحيح المعنى ، إذ هو دال على التساقط عند الابتلاء بالخير ، وهو المطلوب هنا .

وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة يسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ : (ما فعل ثعلبة ؟) فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة . فأخبروه بأمره فقال: (يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة) قال: وأنزل الله ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾[1] الآية . ونزلت عليه فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : (مرا بثعلبة وبفلان) رجل من بني سليم فخذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ. فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب

(١) سورة التوبة ، ١٠٣ .

عليك هذا وما تريد أن نأخذ هذا منك . قال: بلى فخذوه فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي لي، فأخذوها منه، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية وانطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: (يا ويح ثعلبة) قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.. إلى قوله .. ﴿ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته . فقال: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثي على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني . فلما أبى أن يقبل رسول الله ﷺ رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ

ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى أبا بكر حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها؟! فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، وأنا لا أقبلها منك، فقبض ولم يقبلها . ثم ولي عثمان رضي الله عنه فأتاه، فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر رضوان الله عليهما، وأنا لا أقبلها منك . فلم يقبلها منه ، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه .

إنْ كان ذلك في الابتلاء بالمال ، فالتساقط يكون أيضاً عند الابتلاء بالولد ، ومن ذلك : أمر الزوجين الذين دعوا الله وتعاهدا ونذرا لله لئن آتاهما ولداً ، وكانا لا يحيا لهما ولدٌ، فعاهدا ربهما لئن رزقهما الله ولداً ليكونن من الشاكرين ، فلما رزقهما الله لم يشكرا الله ، بل كفرا وأشركا به ، وهو قوله

تعـــالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾[1].

وإنا لنرى في الناس من يكـون مسـتقيماً صـالحاً ، فـإذا أنعم الله عليه بنعمة جاه أو ولاية أو سلطان أو مـال تغـيّر، وتبدّل ، وانقلب كافراً بأنعم الله ، فلا يرعى أخوة ، ولا يهمّ لفقير ، ولا يمشي في حاجة عبد ، ولا يهتمّ بأمر مسـلم، بـل تراه عابساً في وجوه الناس ، صاداً في وجوههم أبوابه ، رادّاً عليهم حوائجهم ، محتجباً عنهم ، ونعوذ بالله أن نكون مـن الجاهلين .

(١) سورة الأعراف ، ١٨٩ ـ ١٩٠ .

وراجع : تفسـير زاد المسـير ، لابـن الجـوزي ، ج ٣ ص٣٠٠ ـ ٣٠٢ ، تفسير الطبري ، ج٩ ص ١٤٦ .

ثانياً : الثبات عند الابتلاء بالشرّ :

أما الابتلاء بالشرّ فإنه يكون بصور كثيرة، أظهرها :

١ـ الابتلاء بضيق الرزق:

وهو الذي جاء في قوله تعالى﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾.

وهذا أول الانحدار إلى دركات الجهل والضلال والتيه، والظنّ بالله ظنّ السوء ظنّ الجاهلية ، فقد ظنّ أنّ الربّ تبارك وتعالى أراد إهانته أو أنه سبحانه أهانه بتضييق الرزق عليه . ولو كان تقدير الرزق وتضييقه إهانة ، لجعل الله أنبياءه أغنى الناس، فإنهم ما كانوا يشبعون من طعام ، ولا من منام ، ولا يرتوون من شراب، بل أثر عن النبي ﷺ أنه ما شبع ثلاثة أيام متوالية كما روت عائشة رضي الله عنها. تقول عائشة رضي الله عنها في ذلك: (ما شبع رسول

الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا)[1].

٢ـ الابتلاء بالموت :

والموت من أعظم الابتلاءات التي يتطلب موقفاً من الثبات أعظم وأقوى من الثبات في غيره ، لأن الجزع فيه من الميت خورٌ ، والضجر فيه من القريب كفر ، والصبر فيه منهما إيمان .

ولا يعني ذلك أن صاحب الموت لا يبكي ، فالبكاء دون الضجر ودون الجزع ، وهو تعبير من الرحمة ، والنبي ﷺ بكى في أكثر من موقف مات له فيه ابن أو صاحب .

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بهذا اللفظ ، وأصله في الصحيحين والسنن ، البخاري كتاب الأطعمة برقم ٥٤١٦ و٥٤٢٣ ، وفي الرقاق برقم ٦٤٥٤، وفي الأيمان والنذور برقم ٦٦٨٧ ، ومسلم كتاب الزهد والرقائق برقم ٢٩٧٠ ، والترمذي في الزهد برقم ٢٣٥٧ ، والنسائي في الضحايا برقم ٤٤٣٢ ، وابن ماجة في الأطعمة برقم ٣٣٤٤ ، وأحمد في مسند الأنصار برقم ٢٣٦٣١ .

غير أن الثبات عند الابتلاء بالموت يكون إما من الميّت نفسه ، وإما من أهل الميت وأقاربه ، فلنر مواقف أهل الإيمان في الحالتين .

أولاً : ثبات المؤمن عند موته :

وأعظم مثال وأروعه في الثبات عند الممات من سيد الرسل وخير البشر رسول الله ﷺ ، وقد جاءه ملك الموت يخيّره بين البقاء وبين الرفيق الأعلى فيختار في ثبات المؤمن وهو سيد المؤمنين وأول المسلمين يختار الرفيق الأعلى صلى الله وسلم وبارك عليه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « أغمي على رسول الله ﷺ وهو في حجري فجعلت أمسح وجهه وأدعو له بالشفاء، فقال: لا، بل أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد ، مع جبريل وميكافيل وإسرافيل»[1].

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى باب ما يقول عند الموت ج ٩ ص ٤٠٢، سيرة ابن كثير ، ج٤ ص ٤٧٦ .

ـ ولقد أخذ أصحابه عنه هذا المعنى العالي في الثبات عند الممات، فكان منهم المثل الرفيع :

١ ـ فهذا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين طعنه أبو لؤلؤة فيروز المجوسي ، وهو قائم يصلي بالناس الصبح في المحراب النبوي في المدينة وقد خرّ من قامته ، فحمل إلى منزله والدم يسيل من جرحه ، فجعل يفيق ثم يغمى عليه ، ويذكّرونه بالصلاة فيفيق ويقول : "نعم ولا حظّ في الإسلام لمن تركها " في ثبات عجيب، ثمّ صلّى في الوقت ، وهو بين الموت والحياة يسأل عمّن قتله من هو؟ فقالوا له: هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. فقال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يدي رجل يدّعي الإيمان ولم يسجد لله سجدة ". وكل ذلك في ثبات وهو يعلم أنه مقتول يسأل عمن قتله ، ومع ذلك يصلي ويطمئن على نفسه أن من قتله ليس مسلماً ، ويوصي ، ويستأذن عائشة أن يُدفن بجوار رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه ، ويجعل الأمر شورى من بعده

في ستّة[1] ينتقيهم من بين صحابة رسول الله ﷺ انتقاءً دقيقاً، وذلك لا شكّ يحتاج منه إلى تفكّر شديد ، وتأمل عميق ، وحذر فائق ، وقوة في الذاكرة ، وبديهة حاضرة، وكل ذلك لا يكون إلاّ ممّن قدر على الثبات على هول المهات والقتل رضي الله تعالى عنه وعن صحابة رسول الله أجمعين .

٢ـ وهذا بلال رضي الله تعالى عنه لمّا حضرته الوفاة ورأت ابنته أن أباه قد حصل فيه الموت وأوشك على فراقهم، جزعت وصارت تصرخ تقول : " وا أبتاه ! واكربتاه ! " فانتبه سيدنا بلال رضي الله عنه عند ذلك من سكرة الموت وصار يقول : " ليس على أبيك بعد اليوم كربة؛ غداً ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه " .

ثانياً: ثبات المؤمن عند موت قريبه :

والمرء قد لا يجزع لموته ، ولكنه يصيبه الجزع والهلع ،

(١) راجع : البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج٧ ص ١٦٦ ـ ١٧٦ .

ويقول ما لا يرضي ربه عند موت قريبه أو حبيبه، من ولده أو والده، فيسيء إلى نفسه، ويغضب ربه، ولا يتحمل البلاء كما يجب عليه .

أما المؤمن الصادق في إيمانه فقليل جزعه ، بل لا يجزع ولا يضجر لأمر الله وفعله سبحانه وتعالى ، وإنما يبادر بالصبر الجميل والاستعانة بالله على تخفيف المصيبة يسترجع ويستغفر، لأنه يعلم عقلاً "أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها ، وأن الجزع يشمت عدوه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه، ويعلم أنه لو صبر واحتسب أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسرّ صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزّاهم هو قبل أن يعزّوه ، وهذا هو الكمال الأعظم ، لا لطم الخدود، ولا شق الجيوب، ولا الدعاء بالويل والثبور، أو التسخط على المقدور .

قال بعض الحكماء: « العاقل يفعل في أول يوم من

المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم » لأن آخر أمره على صبر الاضطرار.

ومن روائع السلف في هذا المقام يثبتون عند المصيبة ولا يجزعون لا لموت قريب ولا لموت حبيب ، ولا لموت ولد ولا لموت والد ولا لموت زوج :

١ ـ أبو ذر الغفاري ﷺ :

هذا أبو ذر الغفاري ﷺ لا يجزع لفقد الأبناء ولا لعدم الإنجاب ، وكأنه رضي الله تعالى عنه كلما رُزق بولد قُبض ، فلم يبق له ولد ، فقيل له في ذلك: إنك امرؤٌ ما يبقى لك ولد . فقال : « الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء ويدخرهم في دار البقاء» [١].

٢ـ أم سليم وأبو طلحة رضي الله عنهما:

وقد ضربا للمؤمن الثابت أروع مثال ، وأريا ربهما من

(١) كنز العمال ج٢ ص ١٥٧ ، حياة الصحابة ، ج٢ ص ٤٨١ .

أنفسهما خيراً في موقف يعجز كثير من الناس الثبات فيه ، فيجزع ويضجر ويسخط .

لَمَّا تزوج أبو طلحة ﷺ بأم سليم رضي الله عنها ؛ وُلد له غلام درج وأُعجب به أبوه ، فقبضه الله تبارك وتعالى ، فجاء أبو طلحة فقال لأم سليم : " ما فعل ابني يا أم سليم؟ قال : خير ما كان . فقالت له : ألا تتغدّى قد أخرت غداءك اليوم؟ فقدّمت إليه غداءه ، فلما تغدّى قالت له : يا أبا طلحة عارية استعارها قوم وكانت العارية عندهم ما قضى الله وإن أهل العارية أرسلوا إلى عاريتهم فقبضوها ألهم أن يجزعوا ؟ قال : لا . قالت : فإن ابنك قد فارق الدنيا . قال : أين هو؟ قالت : ها هو ذا في المخدع . فدخل فكشف عنه واسترجع فذهب إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بقول أم سليم ، فقال : (والذي بعثني بالحق لقد قذف الله تبارك وتعالى في رحمها ذكراً لصبرها على ولدها) فوضعته فقال نبي الله ﷺ : (اذهب يا أنس إلى أمك فقل لها : إذا قطعت سرار ابنك فلا

تذيقيه شيئاً حتى ترسلي به إليّ) فجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال: (ائتني بثلاث تمرات عجوة) فمضغها فحنّكه بها وسماه عبد الله .

قال سفيان : " فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن "[1].

٣ـ مطرّف بن الشخّير رحمه الله:

مات ولده عبد الله بن مطرّف ، فخرج على قومه في ثياب حسنة وقد ادهن ، فغضبوا ، فقالوا : يموت عبد الله وتخرج في مثل هذه مدهناً ؟ فقال مطرّف : أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى عليها خصالاً ، كل خصلة منها أحبّ إليّ من الدنيا كلها ؟ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٩/ ٢٦١) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح . والقصة مروية بألفاظ أخرى عند البخاري (١/ ١٧٤ ، ٢/ ٨٢٢).

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [1] أفأستكين لها بعد ذلك؟ ثم قال : " ما شئ أعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء إلاّ وددت أنه أخذ مني في الدنيا" [2].

٣ ـ الثبات عند الابتلاء بفقد الأصحاب:

وهذا نوع من أنواع الابتلاء بالشرّ ، يقع غير الموحّد ومن لم يرسخ الإيمان في قلبه فريسة ذلك، فينقلب على عقبيه، ويفارق الجماعة، ويترك دينه، ويغيّر انتماءه، ويبدّل ولاءه لغير الأمة وبغير الملّة.

أما المؤمن الموحّد ممن رسخ الإيمان في قلبه وقوي يقينه بالله، وثبت على الإسلام ؛ فإنه يثبت عند الابتلاء بفقد الأصحاب ولو كان ذلك بمقاطعة المجتمع له عقوبة وتعزيراً وردعاً .

---

(١) سورة البقرة ، ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد ، انظر شعب الإيمان للبيهقي فصل ما يلحق بالصبر عند المصائب ج ١٢ ص ٤٣٥.

ولقد وقع لكعب بن مالك وصاحبيه مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية ﷺ بلاء شديد ، حين قاطعهم المسلمون في المدينة خمسين يوماً بأمر رسول الله ﷺ ، لما تخلفوا عن غزوة تبوك وصدقوا في اعتذارهم لرسول الله ﷺ بخلاف المنافقين الذين كذبوا الله ورسوله ، فلم يؤاخذهم النبي ﷺ لأن حسابهم مرصود .

وقد وصل بهم الأمر غايته ، على ما جاء في وصف القرآن لذلك في قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ﴾[1].

وهم في هذه الحالة يقع له ما يدعو كعباً ﷺ إلى تخفيف ما عليه من الضيق فيثبت على المبدأ الذي يعمل لأجله ، وعلى الحق الذي آمن به ، ونتركه رضي الله تعالى عنه يخبرنا ما جرى له، وما كان من أمره من ثبات المؤمن الصادق ،

(١) سورة التوبة ، ١١٨ .

الذي لا يزعزع ولاءه فقدُ الأصحاب ، ولا يضعف انتماءه هجرُ المجتمع تعزيزاً له ، ولا يغيّر حاله تراغيب السلاطين ولا إغراءات من يملك الإغراء .

يقول رضي الله عنه : " نهى رسول اللهﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا حتى تنكّرت لي في نفسي- الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشدّ القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي : أحرّك شفتيه يردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلّي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، فإذا التفتّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة، وهو ابن

عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما ردّ علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا انا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: " من يدلّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاء فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: [*أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وأن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فألحق بنا نواسك*] فقلت حين قرأته: " وهذا أيضاً من البلاء " فتيممت به التنّور فسجرته به"[1].

هكذا يجب أن يكون المسلم مع كل ما يقع له ، وهذا هو

(١) تفسير ابن كثير ، ج٢ ص ٣٨٠ ، انظر صحيح البخاري باب حديث كعب بن مالك ج ٦ ص ٣ .

الموقف الذي يجب أن يتخذه ويتمسّك به المؤمن عند كل بلاء وشدّة ، أن يبقى في صفّ المسلمين ، وأن يكون في جماعة المسلمين، وأن لا يفارقهم طرفة عين ، وإن عاقبوه بهجران أو مقاطعة، ثباتاً على المبدأ ، وبقاءً على العهد، ووفاءً به لله عز وجلّ ولرسوله ﷺ وللمؤمنين.

* * *

رابعاً : الثبات في القتال:

عند إطلاق الثبات يبادر إلى الذهن دائماً أنه الثبات في القتال ، وأكثر موارد الثبات في القرآن الكريم في الثبات عند القتال وفي مواجهة الأعداء .

ـ فالله تعالى يقول﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

ـ ويقول تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ

(١) سورة الأنفال ، ٤٥ .

﴿ ۝٧ ﴾[1].

ـــ ويقول كذلك ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ ﴾[2].

وغير ذلك من موارد الثبات في كتاب الله تعالى ، وذلك أنّ المؤمن يصدق أكثر ما يصدق في إيمانه وانتمائه وتوجهه وقصده إلى مرضات الله ورضوانه ؛ في القتال ، وما أسرع جزع المنافق حين يحمي الوطيس فإنه يفرّ ولو كان على أبواب الفراديس تدعوه الحور العين .

ولقد حكا عنهم القرآن يفضح حالهم ويسفّه مآلهم ، وأنهم يتمحّلون المعاذير فراراً من ميادين القتال، وتحايلاً عليه .

ـ فمنهم من يقول: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٩ ﴾[3]..

(١) سورة محمد ، ٧ .

(٢) سورة البقرة ، ٢٥٠ .

(٣) سورة التوبة ، ٤٩ .

ـ ومنهم من يستأذن الرسول ﷺ حين يروا العدو يقولون : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

ـ ومنهم من يقول جزعاً وفرقاً وخوراً: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[2].

ـ ومنهم من يخذّل غيره كي يجد مناصراً في خذلانه وجزعه وعدم ثباته فيقول﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾[3].

ولكن أهل الإيمان الراسخ في القلب والنفس والعقل لا يجزعون عند اللقاء ، ولا تتزلزل أقدامهم عند المواجهة ، بل يثبتون كأنهم الجبال الراسية والأسُود الضارية ..

١ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه :

فهذا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في غزوة مؤتة حين رأى صاحبه القائد ـ زيد بن حارثة رضي الله عنه ـ قد استشهد، وأرادت نفسه الكارهة للقتال ببشريتها أن تتردّد في النزال والقتال؛

(١) سورة الأحزاب ، ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، ١٢ .
(٣) سورة الأحزاب ، ١٣ .

أخذ يذكِّر نفسه بما ينتظرها من الثواب والرضوان عند أكرم الأكرمين، في جنات النعيم ، يُقدم لها صورة الجنة وما فيها من الأطايب واللذائذ، يذكِّرها بظل الجنة الممدود، وبمائها البارد المسكوب، وبفرشها الإستبرق، وقاصرات الطرف التي لم تطمث، وغير ذلك من النعيم الذي مهره ألف قتلة وموتة لا قتلة واحدة ؛ حتى تقدِّم الصفوف، وأعلا الرأية، وضرب بالسيف فوق الأعناق وكل بنان وهو يرجز ثابت القدم ﷺ :

يا حبذا الجنة واقترابهـــا

بــاردةٌ وطيبٌ شـرابهـــا

الروم روم قد دنا عذابها

عليّ إن لاقيتها ضِرابُهـــا

٢ـ عبد الله بن رواحة ﷺ :

وهذا عبد الله بن رواحة ﷺ حـين رأى صـاحبيه زيـداً وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما قد استشهدا أمام عينيه في غزوة مؤته!! . ثقل على نفسه النـزال، وكرهـت القتـال،

وترددت، وكادت أن تتراجع به وتتخاذل، ولكنه ثبت بها فضربت له جأشاً للقتال والنزال فأمسك زمام نفسه بيد، والسيف الصارم بيد، يجبرها على القتال ويكرهها على النزال، فكر على العدو يقسم عليها :

أقسمت يا نفسي لتنزلـــــنَّ

لتــنزلنَّ أو لتكــرهنَّ

قد أجلب الناس وشدوا رنه

مالي أراك تكرهن الجنـة

يا نفس إلا تقتلــي تموتــي

هذا حمام الموت قد صليت

فما تمنيت فقــد أعطـــيت

إن تفعلي فعليهمــا هديت

٣ ـ زيد بن الخطّاب ﷺ :

وهذا زيد بن الخطاب ﷺ كان يوم اليمامة يحمل راية المسلمين ، وقد انكشف المسلمون حتى ظهرت حنيفة على

الرجال، فجعل يقول في ثبات المؤمن المجاهد الهصور: « أمّا الرّجال فلا رجال ، وأمّا الرّجال فلا رجال » ثم جعل يصيح بأعلى صوته حاثّاً المجاهدين ومحرضاً لهم : « اللهمّ أعتذر إليك من فرار أصحابي ، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن الطفيل » وجعل يشدّ بالراية يتقدّم بها في نحر العدو ، ثم ضارب بسيفه حتى قُتل رضي الله تعالى عنه .[1].

٤ ـ سالم مولى أبي حذيفة ﷺ:

فإنه رضي الله عنه لمَّا وقعت الراية من زيد حين استُشهد أخذها ، فقال المسلمون : " يا سالم! إنّا نخاف أن نؤتَى من قبلك " فقال : " بئس حامل القرآن أنا إنْ أتيتم من قِبَلي" . فأخذ الراية بيمينه فقطعت يده اليمنى، فأخذها بيساره فقطعت ، فاحتضنها وهو يقول :﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ج٣ ص ٢٢٧ ، و البداية والنهاية ،لابن كثير ، ج٦ ص ٤١٠ ـ ٤١١ ، حياة الصحابة ج١ ص ٤٣٨ .

مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [1] .. ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ [2] وهو ثابت مقبل غير مدبر حتى صُرع في سبيل الله رضي الله تعالى عنه [3].

وفي طبقات ابن سعد : أنه رضي الله تعالى عنه لمّا رأى ضعف القتال صار يقول : " ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله ﷺ". فحفر لنفسه حفرة وقام فيها ، ومعه راية المهاجرين يومئذ فقاتل حتى قُتل رحمه الله تعالى [4].

* * *

خامساً : الثبات عند القتل :

من أشدّ المواقف على الإنسان أن يعلم أنه مقتول لا محالة، ولا أمل له في النجاة من القتل ، ثمّ يتجلّد ويثبت، فلا يظهر جزعاً ، ولا يُبدي فَرَقاً ولا خوفاً ، بل تراه ثابتاً

(١) سورة آل عمران ، ١٤٤ .

(٢) سورة آل عمران ، ١٤٦ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، ج٦ ص ٤١١ .

(٤) طبقات ابن سعد ، ج٣ ص ٨٨ .

كأنّ قتلته لا تعدل عنده قرصة بعوضة أو كأنها أخف من قلع ضرس ، وهول القتل يتصاغر في قلبه حتى يوشك أن يتلاشى ، وانتظار الموت يزيده ثباتاً على ثباته ، إنْ كان ذلك في الله وفي سبيل الله ، وإلاّ ما أشدّ على المرء أن يعلم أنه سيُقتل ثم ينتظر القتل ، والسيف يسنّ على شفير الحقد والحِنق ، والنطع يُعدُّ أمام ناظريه ، وقد سيق إلى الموت وهو ينظر، يا لهول ذلك لغير الله وقد صوّر القرآن هذا المشهد في قوله ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾[1].

وسادة أهل الإيمان الذين رسخ الإيمان في قلوبهم وتشبّعت به جوارحهم يثبتون في كل هذه المشاهد كأنما يساقون إلى جنان الخلد وهم ينظرون في شوق وتعجّل .

١ـ نبيّ الله زكريا عليه السلام:

فالأنبياء جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه هم سادة أهل الثبات ومعلموهم ، وقادتهم وقدوتهم في كل مواطن

(١) سورة الأنفال ، ٦ .

الثبات وميادينه .

فنبيّ الله زكريا عليه السلام ثبّته الله في موطنٍ لا يثبت فيه إلاّ مؤمن كمل إيمانه ، وبرد يقينه بحب الله تعالى وأوامره ، ولو لم يكن كذلك لجزع وملأ الدنيا صياحاً وصراخاً .

فإنه عليه السلام لَمَّا طلبه قومه ـ بنو إسرائيل ـ ليقتلوه هرب من قومه ، ولما أن تخوّف أن يدركوه عرضت له شجرة فنادته وقالت له: إِلَيَّ إِلَيَّ ، وانصدعت له فدخل فيها فالتأمت الشجرة، ولكن طرف ردائه كان خارجاً من الشجرة ، فلما جاءوا دلّهم إبليس على أنه داخل الشجرة وطلب منهم أن يشقّوه بالمنشار ، فوضعوا المنشار عليهما ، فلمّا وصل المنشار إلى أضلاعه أنَّ ، فأوحى الله إليه: " لئن لم يسكن أنينك لأقلبنّ الأرض ومن عليها، فسكن أنينه حتى قُطع باثنتين[1].

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج٢ ص ٧٨ ، ٨٢ ، الدر المنثور ، للسيوطي ، ج٥ ص ٤٩٠ .

٢ـ سحرة فرعون الذين آمنوا :

وسحرة فرعون الذين جيئ بهم من المدائن حاشرين، ليغلبوا موسى ، بثباتهم على ما آمنوا به وعلى الحق الذي عرفوه أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء ـ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما ـ .

فإنهم لما عرفوا أن فعل موسى ليس سحراً كسحرهم ، وأنه ليس بساحر ، وعرفوا أنه مرسل من ربه، أعلنوا إيمانهم بموسى وبرب موسى عليه السلام ، وفي ميدان المناظرة السحرية وقد حُشر الناس ضحىً ليشهدوا هزيمة موسى ويكفروا به ويزدادوا إيماناً بفرعون ـ لعنه الله ـ ، عندما تبيّن لهم الحق وحصحص خروا سجداً ، وأعلنوا إيمانهم قائلين: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [1] فأُسقط على يد فرعون وهرَجَ ومرَجَ ورَغَدَ وأَزبَدَ وصاح وصرخ متوعّداً إياهم يقول: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ

(١) سورة طه ، ٧٠.

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾[1]..

ولكن هيهات أن يجزعوا لتهديده أو وعيده، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان وعمروها بمحبة الله والتطلع إلى جنابه وقربه والتعلق برجائه، فردّوا عليه بثبات المؤمن الراسخ في الإيمان﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾[2]؛ لأنهم علموا أن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وعرفوا أن متاع الحياة الدنيا في الآخرة قليل، وأن الآخرة لهي الحيوان.

لذلك لم يكتفوا فقط بردّ تهديد فرعون ووعيده، وإنما بدأوا يعظونه ويذكّرونه بالله وما للكافر والمؤمن من جزاء وفاق، فجعلوا يقولون لفرعون﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ

(١) سورة طه، ٧١.

(٢) سورة طه، ٧٢-٧٣.

﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ [1].

٣ ـ خبيب بن عديّ رضي الله عنه:

وهذا صحابي جليل من صحابة رسول الله ﷺ يُري من نفسه الكفار كيف يكون المؤمن الصادق، وكيف يكون من صاحب رسول الله ﷺ متطلعاً إلى جنات الله ، لا يبالي ما يصيبه في الدنيا ، وإنما يهمه ما يصيبه في الآخرة ، ولذلك أرداوا إخافته ، فما خاف ، وأجزعوه حين صلبوه على الجذع فما جزع لهم ، بل ظلّ ثابتاً مؤمناً يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه .

لَمَّا خرج به كفار قريش من الحرم ليقتلوه، قال لهم : " دعوني أصلي ركعتين" ، فلما انصرف قال لهم : " لولا أن تروا أنّ ما بي جزعٌ من الموت لزدت" . فهو لا يبالي كيف سيقتل طالما سيقتل في سبيل الله ، ومن قتل في سبيل الله فهو

(١) سورة طه ، ٧٤ ـ ٧٦.

شهيد ، لذلك أرى الله من نفسه خيراً حين صار ينشد في ثبات المؤمن وقد اجتمعوا لصلبه وقتله :

لقد جمّع الأحزاب حولي وألَّبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهد
عليّ لأنّي في وثاق بمضيـــــع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
وقُربت من جذع طويل ممنّـــع

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما
أرصد الأحزاب لي عند مصرعـي

فذا العرش صبّرني على ما يراد بي
فقد بضّعوا لحمي وقد ياس مطمعي

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أيّ جنب كان في الله مصرعي

ولست بمبد للعدو تخشّعـــــاً

ولا جـزعاً إني إلى الله مرجـــعي

وذلك في ذات الإله وإنْ يشــأْ

يبـارك علـى أوصال شلوٍ ممـزّعِ[1]

٤ـ عبد الرحمن زياد بن أنعم رحمه الله:

أسرت الروم عبد الرحمن زياد بن أنعم قاضي أفريقية في زمانه ، فقُدِّم ليقتل بعد قتل طائفة من أسرى المسلمين ، قال رحمه الله : « فحركت شفتيّ وقلت : الله الله ربي لا أشرك به شيئاً ولا أتخذ من دونه وليّاً . فأبصر الطاغية فعـلي ، فقـال : قدموا شماس العرب . لعلك قلت : الله الله ربي لا أشرك بـه شيئاً ؟ قلت : نعم. قال : ومن أين علمته ؟ قلت: نبيّنا أمرنا به. فقال: وعيسى أمرنـا بـه في الإنجيـل . فـأطلقني ومـن

(١) راجع : سيرة ابن هشام ، ج٣ ص ٩٧ ـ ٩٨ ، سـيرة ابـن كـثير ، ج٣ ص ١٢٤ .

معي»[1].

وهذا مما يوفّق الله تعالى عبده الصالح في مواطن الجزع، ومما يكرم الرّب جلّ وعلا الصالحين المؤمنين ممن رطب لسانه بذكر الله فيجري الذكر مما يرضيه سبحانه وتعالى على لسانه يعينه بذلك على الثبات ، فينجيه الله من شرّ الطغاة .

وهذا من آثار الثبات، وأنه ينجي الثابتين في مواطن الهلاك.

٥ ـ عبد الله بن حذافة السهمي ﷺ:

وعبد الله بن حذافة السهمي من أصحاب رسول الله ﷺ الذين نحبهم ونجلّهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، نصروا رسول الله ، وآزروه ، وعزروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وشادوا معه ومن بعده الدين ، وجاهدوا معه

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام في الجهاد وفضله ، لابن النحاس ، تحقيق إدريس محمد علي ومحمد خالد استطنبولي، ج١ ص ٥٨٧ . نقلاً عن سير أعلام النبلاء للذهبي ، ج٦ ص ٤١٢ .

حقّ الجهاد حتى أتاهم اليقين رضوان الله تعالى عليهم ، أحببنا أن نجعل سيرته وموقفه في الثبات مسك الختام لمواقف الثبات النادرة .

أسرته الروم في بعض غزواته على قيسارية في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، فجرى بينه وبين طاغية الروم مساجلة أمسك بزمامها ابن حذافة يري الكافرين كيف إيمان المسلم بربه وبقضيته..

ـ قال له الطاغية : تنصّر وإلاّ ألقيتك في البقرة [1]، فقال ابن حذافة: ما أفعل.

فدعا بالبقرة ، فملئت زيتاً وأُغليت ، ودعا برجل من أسرى المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى ، فألقاه في البقرة، فإذا عظامه تلوح!!..

ـ فقال لعبد الله بن حذافة : تنصّر وإلاّ ألقيتك!.

ـ قال: ما أفعل.

(١) البقرة: وعاء كبير من نحاس مُلئت زيتاً وأُغليت .

فأمر به أن يلقى في البقرة، فبكى عبد الله. فقالوا: قد جزع، قد بكى.

ـ قال الطاغية: ردّوه.

ـ فقال ابن حذافة: لا ترى أني بكيت جزعاً مما تريد أن تصنع بي! ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نفسٌ واحدة يُفعل بها هذا في الله، وإني كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كلِّ شعرة فيَّ ثمّ تسلّط عليّ فتفعل بي هذا.

فأُعجب منه. وأحبّ أن يطلقه، فقال: قبّل رأسي وأطلقك.

ـ قال: ما أفعل.

ـ قال: تنصّر وأزوّجك ابنتي وأقاسمك ملكي .

ـ قال : ما أفعل.

ـ قال: قبّل رأسي وأطلقك وأطلق معك ثمانين من المسلمين.

ـ قال: أما هذه فنعم.

فقبّل رأسه، وأطلقه، وأطلق معه ثمانين من المسلمين، فلما قدموا على عمر ﷺ قام إليه عمر فقبّل رأسه.

فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبّلت رأس عِلْج، فيقول لهم : " أطلق الله بتلك القبلة ثمانين من المسلمين"[1].

❐ ❐ ❐

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير الجزري ، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين ، ج٣ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

المعينـات على الثَّبـات

كما تقرّر أن الثبات ليس بالأمر الهيّن الذي يسـهل عـلى كل واحد التلبّس به، والتزامه، وإقامـة حياتـه عليـه، لأنـه صفة من صفات الموحّـدين، وسـمة مـن سـمات المـؤمنين، وليس كل منتسب إلى الإيمان بقادر على الثبات إلاّ من رسخ الإيمان في قلبه وقوي في نفسه ، وأقام حياته عـلى مطلوباتـه ومراد ربه جلّ وعلا .

لذلك لا بدّ من التعرّف على ما يعين عـلى الثبـات عنـد الملمات وعند الشدائد ، ولا بدّ مـن البحـث عـن مقومـات الثبات في حياة المؤمن ، وبماذا يزداد ثباتاً عـلى الحـق وعـلى المبدأ الذي التزمه وعلى العقيدة التي اعتنقها.

وإليك بعض هذه المعينات المثبتات والوسائل المقويات للثبات على الحق والمبدأ:

١ـ النصرة لله تعالى :

فأول ما يعين المـؤمن عـلى الثبـات أن يكـون منـاصراً

للحق ، ناصراً لله ولرسوله وللمؤمنين ، يدافع عن الحق وعن الدين ، ولا يتخاذل عند رجاء النصرة ، والمتخاذل مخذول مهزوم ، وبتخاذله عن الله يخرج عن ولايته ويدخل ولاية الشيطان ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾[1].

فمن أراد أن يقيم حياته على الثبات فعليه بالنصرة لله في دينه وشرعته وسنة نبيه ﷺ وقد قال تعالى في ذلك مصرحاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[2].

٢ - الإيمان الصادق بالله تعالى:

فإنّ استمداد الثبات من الله تعالى؛ إنّما يكون للمؤمنين الذين آمنوا به وصدّقوا رسله واتبعوا كتبه والتزموا شرعه، في الأقوال والأعمال وسائر الأحوال، فهؤلاء حقيقون بأن يثبتهم الله تعالى في الدارين، ويلهمهم من الرأي صوابه

(١) سورة الفرقان ، ٢٩ .

(٢) سورة محمد ، ٧ .

ومن القول أحسنه ومن اليقين أرسخه ، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.. ﴾[1].

٣ـ الاعتقاد بأن فعل الله كلّه خير:

فأهل الثبات يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الله تعالى كل ما يفعله خير ، وأنه سبحانه لا يفعل إلاّ خيراً ، وأن كل ما يقع له وكل ما يصيبه هو خير له ، ظهر ذلك أو لم يظهر ، بانت حكمة الفعل أو غابت ، ظهرت آثار الخير أو خفيت، لأن الشر لا ينسب إلى فعل الله أبداً ، وأن الخير بيديه والشر ليس إليه ، وبذلك أخبرنا رسول الله ﷺ في دعائه الطويل في استفتاح الصلاة: (لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشرّ ليس إليك، أنا بك وإليك..)[2]. وهذا "يتضمن

(١) سورة إبراهيم ، ٢٧ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم ٢٠١، ج٦ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١، والنسائي في كتاب الافتتاح،

تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإنْ دخل في مخلوقاته "[1].

ولهذا كلما وقع بلاءٌ أو شدةٌ أو محنةٌ للمؤمن الذي يعتقد جازماً أن كل ما يفعله الله خيرٌ ؛ بادر إلى الثبات وثبت .

فهذا سعد بن أبي وقاص ﷺ لما قدم مكة وقد كُفَّ بصره، جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم ـ وكان مستجاب الدعوة ـ فجعل يدعو لهم فقال له عبد الله بن السائب رحمه الله : يا عم ! أنت تدعو للناس فيشفون، فلو دعوت لنفسك لردّ الله عليك بصرك . فتبسّم سعدٌ ﷺ وقال : " يا بنيَّ ! قضاء الله أحبّ إليّ من بصري "[2].

باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة، ج٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(١) راجع : التفسير القيم ، لابن القيم ، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٦ .

(٢) مدارج السالكين ، ج٢ ص ٢٢٧ ، إحياء علوم الدين، ج٤ ص ٣٦٨ ، وانظر كتابنا: دروس في تزكية النفس، ص ٢٢٠ .

وهذا عمران بن حصين ﷺ استسقى بطنه، فبقي ملقىً على ظهره مدة طويلة ، لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقب له في سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مطرّف بن عبد الله الشخّير، فجعل يبكي لما رأى من حاله، فقال له عمران: " لم تبكِ؟ فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة، فقال عمران : لا تبك ، فإن أحبه إليّ أحبه إليه ـ أي الله ـ وقال : أخبرك بشيء لعل الله أن ينفعك به، واكتم عنّي حتى أموت، إن الملائكة تزورني فآنس بها ، وتسلّم عليّ فأسمع تسليمها [1].

٤ - الاعتبار بقصص المرسلين:

فالأنبياء والمرسلون أشد الناس بلاءً وأكثرهم تحمُّلاً وأرسخهم ثباتاً، كيف لا! وقد اصطفاهم الله تعالى واجتباهم لحمل رسالاته وتبليغ دعواته.

وقد حكى الله تعالى لنبيه الخاتم ﷺ قصص إخوانه

(١) مدارج السالكين ، الموضع السابق .

السابقين من أولي العزم من الرسل ومن غيرهم حتى يمضي في طريق الأسوة والاقتداء بالمهتدين السابقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(١). وما كانت هذه القصص إلاَّ لطمأنة نبيه وتثبيت فؤاده: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(٢).

فقد كانوا بدوراً خيرة وكواكب نيرة وأنجماً ساطعة وأقماراً ناصعة في الصبر والاحتمال والثبات على ما بُعثوا به.

٥- الصبر والمصابرة في سبيل الحق:

فالصبر قرين الثبات، وزاد الدعاة في احتمال المشاق وأداء واجب البلاغ، ولا ثبات لمن لا صبر له..

والصبر أعون المعينات عند الملمات، وأقوى درع في التحصن من الخطوب المدلهمات، فهو خير الأمور بل عزم الأمور كما قال تعالى ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ**

(١) سورة الأنعام، ٩٠.

(٢) سورة هود، ١٢٠.

عَزْمِ الأُمُور ﴾ [1].

وفي الأثر : « الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « الصبر مطيّة لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو ».

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: « أفضل العدة الصبر على الشدة ».

وممّا اشتهر عند الكافة قولهم: الصبر مفتاح الفرج.

وعن بعض الحكماء: «بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الأمور». وعند انسداد الفُرَج تبدو مطالع الفَرَج، فكم من العطايا في كنف الرزايا وكم من المنح في أثناء المحن. وقلَّ من صبر على حادثة وتماسك في نكبة إلا كان انكشافها وشيكاً، والفرج منه قريباً. وفي مثل هذا قيل:

(١) سورة لقمان ، ١٧.

إنّ الأمور إذا انسدَّتْ مطالِبُها

فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا يتأسنَّ وإنْ طالت مطالبةٌ

إذا استعنتَ بصبرٍ أنْ ترى فرجا

أخلِقْ بذي الصبر أنْ يحظى بحاجته

ومدمن القرْع للأبواب أن يلجا[1].

٦ـ اليقين بمعية الله للمجاهدين:

فلا بدّ للمؤمن المجاهد أن يكون على يقين قاطع أن الله معه ينصره ويؤيده ويدافع عنه، فهو القائل سبحانه﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[2]. وأن يكون على يقين أن الله مولى المؤمنين، وأن الكافرين لا مولى لهم. وأنه بإذن الله القاهر الجبار الغلبة للمؤمنين ولو كانوا هم الفئة القليلة، ولو كان

(١) راجع كل هذا في كتاب أدب الدنيا والدين ، لأبي الحسن الماوردي، ص ٣٤٤ وما بعدها.

(٢) سورة الحج ، ٣٨ .

الكفار والأعداء هم الفئة الكثيرة عدداً وعدة وعتاداً ، ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ (١) أي الثابتين .

عندئذ لا شكّ سيثبت ثبات المؤمن الموحّد .

٧ـ الذكر الكثير :

فلا بدّ لمريد الثبات وطالبه أن يكون ذاكراً لربه في كل حين، خاصة عند البلاء والشدّة وفي المحنة ، لا يفارق لسانه ذكر الله، ويرطبه بذكره جل وعلا ، وقد وصّى رب العزة المؤمنين المجاهدين بذلك فقال لهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢) أي تفلحون في الثبات بالذكر الكثير .

٨ ـ تعظيم الشعائر :

ومن المعينات على الثبات عند الشدّة والبلاء والفتنة

(١) سورة البقرة ، ٢٤٩ .

(٢) سورة الأنفال ، ٤٥ .

والمحنة تعظيم شعائر الله ، والحرص على إظهار الالتزام بآداب الإسلام وتعاليمه ، وقد أرشدنا ربنا تبارك وتعالى إلى ذلك حتى نعان منه جل وعلا على الثبات المطلوب في مواطن الجزع فقال تعالى﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا ﴾[1] فالتساقط والتزعزع والتراجع والتخلي والردة والتردد إنما يكون من التلاعب بالأيمان وأن يجعل الله عرضة للأيمان ، وفي ذلك تهاون بالشعائر وتساهل في رعاية حقوق الله عز وجل ، مما يؤكّد أن الثبات يستعان عليه بتعظيم شعائر الله ،﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾[2].

٩ـ الدُّعاء والتضرع إلى الله:

ومن المعينات القويّة على الثبات : الدعاء ، وقد نبّهنا رب العزة جل وعلا إلى الدعاء بالثبات في مواطن كثيرة

(١) سورة النحل ، ٩٤ .

(٢) سورة الحج ، ٣٢ .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾[1].. وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾[2].

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو ربه كثيراً بالثبات وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام :ـ (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[3].

ـ (يا وليّ الإسلام وأهله، مسّكني ، وفي رواية : ثبّتني على الإسلام حتى ألقاك)[4].

ـ (اللهم أجب دعوتي وثبت حجتي)[5].

---

(١) سورة البقر ، ٢٥٠ .

(٢) سورة آل عمران ، ١٤٧ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ج ٤ ص ٤٤٨ ، وقال: حديث حسن، وصححّه الألباني .

(٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي، برقم ٣٩١٠ انظر الدعوات الكبير للبيهقي ج ١ ص ٣٤٦ .

(٥) سنن أبي داود، باب ما يقول الرجل إذا سلّم، ج ٢ ص ٨٣ .

ـ (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وأسألك عزيمة الرشد ، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأستغفرك لما تعلم وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم)[1].

وهكذا يجب أن يكون المسلم، لا يتزعزع بكل حادثة، ولا يترنح بأقل ضربة، ولا يرتاب بأول مواجهة، ولا يضطرب بأدنى فتنة، ولا يتخلى عن التزامه وحاله وانتمائه بإشاعة تنال داعية، أو تعذيب ينزل عليه أو على بعضهم.. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ..

❐ ❐ ❐

(١) أخرجه أحمد من حديث شداد بن أوس ج ٢٨ ص ٣٥٦ والترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء فيمن قرأ القرآن عند المنام ج ٥ ص ٤٧٦.

فهرس المحتويـات

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمة	٥
٢	معنى الثبات وحقيقته	٨
٣	الثبات من لوازم الإيمان	٨
٤	الثبان من مقاصد القرآن	١١
٥	الثبات في دعوة النبي ﷺ	١٦
٦	ميادين الثبات ومواطنه	١٧
٧	أولاً : الثبات على المبدأ	١٧
٨	بلال بن رباح رضي الله عنه	١٩
٩	المرأة المسلمة	٢٠
١٠	أصحاب الأخدود	٢٣
١١	الإمام أحمد بن حنبل	٢٨

١٢	ثانياً : الثبان عند الأذى	٣٨
١٣	ثالثاً : الثبات عند الابتلاء	٤٥
١٤	أولاً : الثبات عند الابتلاء بالخير	٤٧
١٥	ثانياً :الثبات عند الابتلاء بالشرّ	٥٥
١٦	الابتلاء بضيق الرزق	٥٥
١٧	الابتلاء بالموت	٥٦
١٨	أولاً : ثبات المؤمن عند موته	٥٧
١٩	ثانياً : ثبات المؤمن عند موت قريبه	٥٩
٢٠	أبوذر الغفاري ﷺ	٦١
٢١	أم سليم وأبو طلحة ﷺ	٦١
٢٢	مطرّف بن عبدالله رحمه الله	٦٣
٢٣	الثبات عند الابتلاء بفقد الأصحاب	٦٤
٢٤	رابعاً: الثبات في القتال	٦٨
٢٥	جعفر بن أبي طالب ﷺ	٧٠

٢٦	عبدالله بن رواحة ﷺ	٧١
٢٧	زيد بن الخطاب ﷺ	٧٢
٢٨	سالم مولى أبي حذيفة ﷺ	٧٣
٢٩	خامساً:الثبات عند القتل	٧٤
٣٠	نبي الله زكريا عليه السلام	٧٥
٣١	سحرة فرعون الذين آمنوا	٧٧
٣٢	خبيب بن عديّ ﷺ	٧٩
٣٣	عبدالرحمن زياد بن أنعم رحمه الله	٨١
٣٤	عبدالله بن حذافة السهمي ﷺ	٨٢
٣٥	المعينات على الثبات	٨٦
٣٦	النصرة لله تعالى	٨٦
٣٧	الإيمان الصادق بالله تعالى	٨٧
٣٨	الاعتقاد بأن فعل الله كله خير	٨٨
٣٩	الاعتبار بقصص المرسلين	٩٠

٤٠	الصبر والمصابرة في سبيل الحق	٩١
٤١	اليقين بمعية الله للمجاهدين	٩٣
٤١	الذكر الكثير	٩٤
٤٢	تعظيم الشعائر	٩٤
٤٣	الدعاء والتضرع	٩٥
٤٤	فهرس المحتويات	٩٩

رقم الإيداع: ٣٢٤ /٢٠١٣